

# الموسيقى وحياة اللاجئين: الأفغان في شرقي إيران وكاليفورنيا

بقلم: جون بيلي

UNHCR/26263/11.1996/R. LeMoynne



كثيراً ما تتعرض مجتمعات اللاجئين للحرمان من الوسائل المعتادة للتعبير الموسيقي، إما بسبب عدم وجود الموسيقيين أو عدم توافر الآلات الموسيقية التقليدية، أو بسبب عدم توافر الفرص لها في البلد المضيف.

أهمية ذلك إلى الدور الحاسم الذي يقوم به النشاط الموسيقي في حياة الإنسان، فهو يجمع بين الناس في علاقات خاصة، كما أن الموسيقى ذات طاقة على التعبير العاطفي، ولها دورها فيما يسمى «بالتحالف»، وفي الإفصاح عن الهوية. فإذا وسَّعنا زاوية النظر وجدنا أن الموسيقى لا تقتصر على تجسيد العمليات الاجتماعية والثقافية العريضة بل يمكن أن تصبح وسيلة لتوليد هذه العمليات والتفاعل معها والتحكم فيها. والموسيقى جديرة بأن تكون موضع بحث بسبب إمكاناتها الكامنة على التصدي لما يواجهه اللاجئ في حياته.<sup>١</sup>

**وترجع** أهمية ذلك إلى الدور الحاسم الذي يقوم به النشاط الموسيقي في حياة الإنسان، فهو يجمع بين الناس في علاقات خاصة، كما أن الموسيقى ذات طاقة على التعبير العاطفي، ولها دورها فيما يسمى «بالتحالف»، وفي الإفصاح عن الهوية. فإذا وسَّعنا زاوية النظر وجدنا أن الموسيقى لا تقتصر على تجسيد العمليات الاجتماعية والثقافية العريضة بل يمكن أن تصبح وسيلة لتوليد هذه العمليات والتفاعل معها والتحكم فيها. والموسيقى جديرة بأن تكون موضع بحث بسبب إمكاناتها الكامنة على التصدي لما يواجهه اللاجئ في حياته.<sup>١</sup>

والنشاط الموسيقي في مجتمعات الأفغان خارج وطنهم خير مثال على صدق هذا القول؛ وتولي هذه المقالة الموازنة بين مجتمعين من مجتمعات اللاجئين، الأول في مشهد (شرقي إيران) والثاني في فريمونت (كاليفورنيا). ومن شأن هذه المقارنة أن تسمح بإدراج عدد من المتغيرات مثل: البعد الجغرافي بين بلد المنشأ وبلد الملاجئ؛ واللغة والدين وغير ذلك من أنواع التشابه الثقافي؛ وآفاق المستقبل من حيث الأمن والعمالة والاندماج آخر الأمر في المجتمع. ومن المحتمل أن تكون لهذه العوامل دلالتها للكثير من مجتمعات اللاجئين، وإن كان هناك أحد الاعتبارات الإضافية في حالة أفغانستان، ألا وهو الحظر الذي تفرضه حركة «طالبان» على الموسيقى<sup>٢</sup>، مما يضفي أهمية أكبر على النشاط الموسيقي للأفغان في الشتات، إذ لا توجد أروشيفات يمكن الاستعانة بها، ولا يوجد قطاع ترفيهي، ولا تتوافر المعارف والخبرات المتخصصة في هذا المجال (على نحو ما كان يوجد من قبل في راديو أفغانستان). أما التراث الموسيقي الأفغاني الكبير فهو الآن في أيدي الأفغان المغتربين.<sup>٣</sup>

## مشهد

تعتبر الروابط التاريخية والثقافية بين شرقي إيران

يقيمون في هرات في السبعينيات قد انتقلوا إلى مشهد، بل إن بعضهم كان قد قضى في تلك المدينة ٢٠ سنة، وكان البعض الآخر قد وصل منذ عهد قريب فراراً من سطوة حكم «طالبان»، وطلباً للرزق من خلال العمل بالموسيقى.

وكان الموسيقيون الأفغان في مشهد لا يكفون عن العمل في مجتمعهم، فكانوا يعزفون الموسيقى أساساً في حفلات الزفاف الأفغانية، إذ كان عزف الموسيقى الحية لجموع الحاضرين من الرجال عنصراً أساسياً من عناصر حفلات الزفاف «المحترمة». ولم يكن دور الموسيقى الجميلة يقتصر على إضفاء الاحترام، بل إن تقديم حفل موسيقى مديد كانت له أهمية في تشكيل حفل الزفاف باعتباره حدثاً مهماً، إلى جانب تقديم بعض الأغاني التقليدية المناسبة لهذا الحدث. وهكذا فإن الموسيقى تعتبر جانباً مهماً من جوانب ذلك النشاط المعيارى الأول للإنسان، ألا وهو الزواج وفقاً للأعراف.

وكان الموسيقيون والممثلون الأفغان في مشهد يتمتعون بقدر كبير من التنظيم في عام ١٩٩٨، إذ ساعدهم نصر الدين سلجوقي وغيره من الأفغان

ويتميز الموسيقيون الأفغان المحترفون عن كثير من اللاجئين الآخرين في أن لديهم الموهبة التي يمكن عرض ثمارها على الجمهور، على نحو ما حدث مثلاً في باكستان في الثمانينيات، عندما كان رجال الدين الإيرانيون يحظرون الموسيقى في مخيمات اللاجئين التي يتولون إدارتها؛ إذ زاول الموسيقيون الأفغان نشاطهم من مقر الموسيقيين في بيشاور وتمكنوا من كسب قدر معقول من الرزق بعزف موسيقاهم لمشجعهم من الباكستانيين<sup>٤</sup>، والموسيقى الحضرية الأفغانية ذات أسلوب وثيق الصلة بموسيقى الباشتون الشائعة في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية، وكان معظم الموسيقيين الأفغان ممن يتحدثون اللغة الباشتونية، وينتمون إلى الإقليم الجنوبي الشرقي من البلاد، خصوصاً مدينة جلال آباد. وقد أتوا إلى المقاطعة المذكورة بألوان «متطورة» إلى حد ما من الموسيقى الباشتونية، والتي كان يتجلى فيها تأثير الموسيقيين الذين تعلموا الموسيقى الكلاسيكية في كابل، وهي المدينة التي كانت تعتبر موقعاً متقدماً للموسيقى الكلاسيكية في شمال الهند. وظلت الموسيقى في الفترة من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٨٦ شبه محظورة في إيران، وإن كانت الأحوال قد اختلفت في أواخر التسعينيات، ففي عام ١٩٩٨ كان الكثير من الموسيقيين المحترفين الذين كانوا

شخص، يقيم نحو ١٥ ألفاً منهم في فريمونت، وأغلبهم من المتعلمين من مدينة كابل، ومدينة قندهار ومدينة جلال آباد، والكثير ممن قدموا باعتبارهم لاجئين كان قد سبق لهم العمل في هيئات غربية دبلوماسية أو تعليمية أو ثقافية أو هيئات المعونة قبل الانقلاب الشيوعي عام ١٩٧٨.

## يجد الأفغان صعوبة في التكيف مع الحياة الأمريكية

وتناقض فريمونت مع مشهد في جميع الجوانب التي ذكرت آنفاً، فهي بعيدة جغرافياً، وهي تختلف في اللغة والدين والثقافة والعادات والقوانين. ولا يعيش أفراد المجتمع هنا في خوف من الإعادة قسراً إلى ديارهم، وربما كانت السلطات لا ترى في الأفغان إلا مجرد مجموعة أخرى من المهاجرين الذين سوف يندمجون آخر الأمر في المجرى الرئيسي للمجتمع الأمريكي. وقد حققوا فيما يبدو نجاحاً اقتصادياً نسبياً، إذ يملك الكثير منهم مؤسسات تجارية، كما قاموا أخيراً ببناء مسجد كبير لهم.

ومع ذلك فإن الأفغان يجدون صعوبة في التكيف مع الحياة الأمريكية. إذ نشأ قدر كبير من سوء التفاهم الثقافي، ويجد الأفغان أنهم يتعاملون مع هيئات الخدمة الاجتماعية التي تدمس أنفها في شؤونهم، وتبث فيهم خوفاً من انتهاك قوانين أمريكية لم يسمعوها بها، خصوصاً القوانين المتعلقة برعاية الأطفال. كما نشأت الفوارق بين الأجيال، إذ اكتسب صغار الأفغان الطابع الأمريكي، وبرزت المشكلات الناجمة عن عدم احترام الجيل الأكبر سناً. وهم مشغولون انشغالاً بالغاً بما يجري في أفغانستان، وبمحاولة تفهم الخطأ الذي ارتكب عندما عجز ائتلاف المجهادين عن تحقيق السلم بعد سقوط الشيوعيين. ولذلك فإن محطة الإذاعة الأفغانية المحلية - واسمها صوت أفغانستان ٢٤ ساعة - تتلقى مكالمات تليفونية طول الوقت من المستمعين الذين يناقشون آخر الأنباء. وتنهض الهيئة الدولية لخدمات المهاجرين في فريمونت بدور هام في رصد أحوال المجتمع الأفغاني ومساعدة من يطلب المساعدة من الأفراد. وقد كشفت دراسة طبية عن معاناة ذلك المجتمع من التوتر الشديد، ومن المشكلات النفسية والاكنتاب، وارتفاع معدّل الوفيات.

وكان من بين اللاجئين الذين قصدوا الولايات المتحدة عدد كبير من الموسيقيين، معظمهم من المغنين، وكان بعضهم من النجوم اللامعة في أفغانستان مثل خيال، وزلاند، وفريدة مهوش، وشاه والي والي، وحيدر سالم، وأخته سلمى سالم. وكان معظم هؤلاء المغنين ينتمون إلى الطبقات الوسطى

الأحمر الدولية الإيرانية في طهران أن هذه الأنشطة الموسيقية يمكن الانتفاع بها بعدة طرق؛ إذ كانت الإمكانيات متاحة لتقديم الخدمات الاجتماعية في المناطق التي يكثُر فيها اللاجئين، بما في ذلك المخيمات القريبة من الحدود، كما بذلت محاولة لإنشاء معهد للموسيقى. وقد اتضح كذلك أن هذا كان يمثل محاولة لمخاطبة الإيرانيين، عن طريق تقديم صورة تتميز بالمزيد من الملامح الإيجابية للاجئ الأفغاني، باعتباره شخصاً قادراً على العطاء، في مجال النشاط الفني.

أما وجود الموسيقيين الذين يمارسون نشاطهم في مجتمع اللاجئين فهو يعني للأفغان وجود «حياة في الموسيقى» وتفسير ذلك يسيراً، على النحو التالي:

... إن التأثير الأولي للموسيقى هو منح السامع إحساساً بالأمان، ذلك أنها ترمز إلى مسقط رأسه، ومصادر إشباع رغباته في طفولته الأولى، ومشاعره الدينية، والمتعة التي يجدها في العمل الجماعي، وغرامياته، والعمل، فهي تتضمن إحدى هذه الخبرات التي تشكل الشخصية أو تتضمنها جميعاً.

ويمكن النظر إلى الموسيقى هنا باعتبارها ذات دور علاجي عام، يساعد على الحفاظ على إحساس الفرد بأنه مستقر نفسياً ومن الأسوياء. وعلى منظمات الدعم الخارجي، مثل مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن تدرك أهمية الدور الذي يضطلع به الموسيقيون في إضفاء طابع الأسوياء على حياة اللاجئين، وعليها أن تدعم أنشطتهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه نظراً للظروف الخاصة التي تمر بها أفغانستان، يجب على أمثال هذه الوكالات أن تنظر إلى الموسيقيين باعتبارهم أوصياء على تراث ثقافي هام، وكذلك باعتبارهم أشخاصاً يحتاجون إلى حماية خاصة من الإعادة القسرية ومن الانتقام منهم على أيدي حكومة «طالبان».

### فريمونت

تختلف فريمونت عن مشهد المتاخمة لأفغانستان، إذ تستضيف مجتمعاً من اللاجئين الأفغان أبعد ما يكون عن دياره. ويُقدر عدد الأفغان المقيمين بمنطقة خليج سان فرانسيسكو بنحو ٦٠ ألف

رحيم خوشناواز،  
مشهد

المثقفين على تكوين اتحاد أُطلق عليه اسم «اتحاد الفنانين اللاجئين الأفغان في إيران - مشهد». وكان معظم هؤلاء الموسيقيين أعضاء في ثلاث فرق أسرية، كما كان الاتحاد يضم عدداً من الممثلين وكتاب المسرح الذين كانوا يعملون من قبل في مسرح هرات. وأصبح الموسيقيون والممثلون ينتمون إلى صُلْب الحياة الفكرية والفنية الهراتية في مشهد، فنظم الاتحاد عدداً من الحفلات الموسيقية العامة التي اجتذبت جماهير الإيرانيين مثلما اجتذبت جماهير الأفغان، وتمكن في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٨ من تقديم عرض كوميدى كبير في إحدى دور السينما في مشهد، على مدى ثماني ليالٍ متوالية. وكانت نصوص الأغاني مكتوبة باللغة الداريا لا بلغة الباشتو مما أتاح فهمها يسيراً للمتحدثين بالفارسية في إيران.

أما عن أسلوب الموسيقى فكان يماثل تقريباً أسلوب تأليفها في هرات، وهو الأسلوب الحضري الأفغاني الذي نشأ في كابل وانتشر حتى وصل إلى المدن الأخرى، أساساً عن طريق الإذاعة. وكانت الفرقة المعتادة تتكون من أحد المغنين، وعازف أرغن هندي صغير يُنفخ باليد، وضاربي الطبول وعازفي الربابيات والأعود. وعلى الرغم من عدم تغيير الأسلوب، فقد كانت الفرقة تقدم كل مرة ألواناً مختلفة من الأغاني، تتضمن عدداً أقل من الأغاني الشعبية الرومانسية الخفيفة، التي تنتمي إلى الماضي، وعداداً أكبر من «الغزليات» الجادة الفارسية وخصوصاً ما يدور منها حول العاطفة الدينية، مع اهتمام غير معهود بغير القوالي، وهو فن الموسيقى الصوفية المعروفة في الهند وباكستان. كما قدمت الفرقة بعض الأغاني الجديدة عن أفغانستان، والتي تعبر عن آلام اللاجئين الأفغان وآمالهم.

وقد اتضح من الحديث مع بعض المسؤولين في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وجمعية الهلال



John Bailey

بل والعليا من المتعلمين المقيمين في المدن ( خلافاً للموسيقين في مشهد الذين كان معظمهم من أبناء أسر توارث صناعة الموسيقى دون حظ كبير من التعليم ) وكانوا في العادة يقيمون روابط متينة مع راديو أفغانستان، وإلى جانب هؤلاء فإن في الولايات المتحدة جيلاً أصغر من الموسيقيين الهواة، نشأ معظم أفرادها في أمريكا وتأثروا تأثراً كبيراً بالثقافة الأمريكية .

وكما هو الحال في مشهد، تعتبر حفلات الزفاف هي المناسبات الرئيسية للنشاط الموسيقي، ولكن هذه صورة حديثة من الحفلات تشبه ما كان يجري في كابل قبل عام ١٩٧٨، إذ يختلط فيها النساء بالرجال ويرتدي الجميع الأزياء الغربية. كما تقدم الحفلات أيضاً في قاعات باهظة التكاليف مثل قاعات فندق راديسون في فريمونت. وتتجلى في فرق فريمونت درجة عالية من المثاقفة (أو استيعاب الثقافة المحلية) بل إن الآلات التقليدية مثل الربابة والعود والطنبور يندر أن توجد اليوم في الولايات المتحدة. وما

## تعمل الموسيقى على تحقيق الوحدة بين الأفراد

يزال المؤدي الأول هو المغني المنفرد، وإن كانت الفرقة تستخدم اليوم

آلات ذات مفاتيح وتضم الطبول الخاصة بها، وتستخدم البيانو الكهربائي. ويمكن اعتبار هذه الآلات صوراً مستحدثة للأرغن الهندي. ولكن الطبول التقليدية ما تزال مستعملة، وإن كان الأسلوب الموسيقي قد اكتسب الطابع الغربي إلى حد ما، وذلك باقتباس بعض المبادئ الإيقاعية البسيطة من الموسيقى الغربية.

ونشأ في السنوات الأخيرة الاتجاه إلى دعوة كبار المغنين الأفغان من باكستان لتقديم حفلات في عدة أماكن ولفترات طويلة في الولايات المتحدة. وعادة ما يكون هؤلاء من كبار الموسيقيين من حي الموسيقيين القديم في مدينة كابل، مثل أمير محمد، ورحيم بخش، والحاج حمانغ. وكان تنظيم مثل هذه الحفلات من أنشطة رجال الأعمال الأفغان في السبعينيات خصوصاً في شهر رمضان، حيث تقام الحفلات كل ليلة في الفنادق والمقاهي وما إليها في بعض المدن مثل هرات.

ويدرك زعماء الجالية الأفغانية ما لهذه الحفلات من فوائد مؤكدة لهذه الجالية في فريمونت، ومن بينهم شير أحمد مدير الهيئة الدولية لخدمات المهاجرين. وعمله لا يقتصر على الأفغان بل يمتد ليشمل جنسيات مختلفة كثيرة، مما أتاح له منظوراً خصباً متعدد الثقافات، وهو يرى أن الموسيقى عامل من عوامل التكامل، إذ يلتئم حولها شمل أفراد الجالية، كما تساعد في الحفاظ على الثقافة الأفغانية والهوية الأفغانية. وقد قال لي في هذا الصدد:

« تعمل الموسيقى على تحقيق الوحدة بين الأفراد، شباباً وشيوخاً، وتعيننا على عدم فقدان هويتنا. والاختلافات قائمة ولاشك بيننا نحن الأفغان، لكن وقت الحفلات هو الوقت الوحيد الذي ننسى فيه كل ذلك. جميع الأفراد من شتى المناطق ومن شتى اللغات يأتون لشراء تذاكر حفلاتنا وحضورها ».

ويرى شير أحمد أن بعض مجتمعات المهاجرين التي وجهت استثماراتها إلى الحفاظ على ثقافتها قد استفادت فائدة كبرى، وأن الأفغان لم يحققوا نجاحاً كبيراً في هذا الصدد، وذلك من أسباب بعض مشكلاتهم الصحية في رأيهم. وهو يعتقد أن الموسيقى قادرة على أن تنهض بدور علاجي في حياة الأفراد، ويروي الحادثة التالية دعماً لوجهة نظره: جاء قبل عامين مغنيان من باكستان هما نعمة ومنجل، ودعا ذات مساء إلى منزله، وكان من بين الضيوف الحاضرين مؤرخ وصحفي أفغاني بارز تقدم به العمر يدعى جول أحمد كارزاي، وكان له عشق مشبوب بالموسيقى. وبعد العشاء طلب

الموسيقيون أن يعزفوا له الموسيقى التي يحبها، واستمروا يعزفون حتى الثانية صباحاً. وكان كارزاي عندما وصل في بداية السهرة يعاني من الوهن البالغ الذي اضطره إلى أن يستند إلى شخصين، ولكنه كان قادراً عند انتهاء الحفل على السير وحده دون مساعدة. وكل من لديه إلمام بطاقة الموسيقى العلاجية وقدرتها على تخفيف الآلام في الغرب سيجد هذا المثال مألوفاً، فهو يوضح قدرة الموسيقى على تجديد النشاط.

وإدراكاً من الهيئة الدولية لخدمات المهاجرين للدور الهام الذي تضطلع به الموسيقى، فقد بذلت ما في طوقها من جهد لعقد دورة دراسية لتعليم الموسيقي الأفغانية التقليدية، خصوصاً الغرف على آلي الأرغن الهندي والطلبة، واستعانت في ذلك بالأستاذ عاصف محمود، وهو موسيقي فذ من كابل، يقيم عادة في لندن، وهو يزور فريمونت فيقضي فترات طويلة يدير فيها دورة تعليم الموسيقي الأفغانية. ويعتقد شير أحمد أن العمر لا يمهل كبار الموسيقيين الأفغان، فإذا لم يتلق الشباب العلم منهم ويتقدموا لحمل الشعلة فسوف تنقرض الموسيقى الأفغانية؛ فلو تعلمتها فئة قليلة الآن، فسوف يمكنها أن تورثها للآخرين.

ربما كان هذا الكلام ينطوي على بعض التفاؤل غير الواقعي، فالجاليات الأفغانية التي تقيم - مثل جالية فريمونت - بعيداً عن أفغانستان، في حاجة إلى خبير يقيم احتياجاتها الموسيقية وأفضل السبل لتلبيتها. ولذلك فمن غير المحتمل أن تنجح محاولة الحفاظ على «الموسيقى التقليدية» في الأجل الطويل، إذ يحتاج الموسيقيون في فريمونت إلى الدعم والاعتراف بوجودهم حتى يتمكنوا من وضع الموسيقى الحديثة التي تحمل السمات

الغربية دون أن تفقد طابعها الأفغاني المتميز. ومن شأن هذا أن يساعدهم على صوغ هوية جديدة أفغانية وأمريكية معاً.

## الخلاصة

يدل النشاط الموسيقي الأفغاني في مشهد وفريمونت على أن الموسيقى تنهض بدورين مختلفين في حياة اللاجئين. إذ إن إيران، بسبب قربها المكاني والثقافي من أفغانستان، تمثل ملجأً آمناً مؤقتاً لمجتمع اللاجئين الذين سوف يعودون، على الأرجح، إلى بلادهم، وإن كان ذلك على أسس جديدة من الإقامة فترات دورية لزيادة الفائدة. ويبدو أن دور الموسيقى هنا يقتصر على المساعدة في إرساء طرائق العيش السوية والمطمئنة والناضجة والقدرة على الصمود في وجه الأزمات حتى يحين موعد العودة إلى مستقبل مشرق في الوطن. أما في الولايات المتحدة، فربما فطن اللاجئون الأفغان إلى أنهم ربما لا يعودون إلى الوطن، وأن عليهم من ثم أن ينتفعوا إلى أقصى حد بما هو متاح لهم في أمريكا. وتمثل الموسيقى هنا إحدى الوسائل التي قد تعينهم على صوغ هوية جديدة باعتبارهم من المواطنين المقيمين بصفة دائمة، إلى جانب توفير العلاج النفسي على المستويين الفردي والجماعي.

كاتب المقال هو جون بيلي، أستاذ علم الموسيقى العرقية في كلية غولد سميث بجامعة لندن. وقد قام بدراسات ميدانية في تخصصه في مدينتي هرات وكابل لمدة عامين في السبعينيات، وأجرى المزيد من الأبحاث في الموسيقى الأفغانية في باكستان وإيران وبريطانيا وأمريكا. والمقال بمثابة تقرير تمهيدي في إطار المشروع الدراسي الجاري تنفيذه بعنوان «الموسيقى والهوية والعلاج في مجتمعات الأفغان خارج ديارهم».

١. Reyes Adelaida, "Songs of the Caged and Songs of the Free", 1999, Philadelphia: Temple University Press.
٢. معنى الموسيقى عند «طالبان» أصوات الآلات الموسيقية، سواء صاحبها الأصوات البشرية أم لا. أما الأغاني التي لا تصاحبها الموسيقى فلا تدخل في تعريف الموسيقى. ولا يعترض «طالبان» بل إنهم يذيعون في راديو الشريعة (راديو أفغانستان سابقاً) ترتيل القرآن الكريم وشتى ألوان الأناشيد الدينية، بما في ذلك الأغاني المكتوبة بلغة الباشتو، والتي تضم نصوصاً دينية، وما يمكن اعتباره شبيهاً بالألحان الفولكلورية.
٣. يتميز هذا التراث الموسيقي بالتركيب والتعقيد، إذ يضم عناصر من المؤلفات الموسيقية للعديد من الجماعات العرقية الإقليمية، إلى جانب التأثير الكبير للموسيقى الكلاسيكية والنظرية الموسيقية لشمال الهند.
٤. على نحو ما يتضح في فيلم بعنوان: أمير: حياة موسيقي من بين اللاجئين الأفغان في بيشاور، باكستان (Baily J, 1985, London: Royal Anthropological Institute)
٥. Lomax A 'Folk Song Style'. American Anthropologist, 1959, 61 (6):927-954.
٦. Lipson, J G and Omidian, P A Afghan Community Health Assessment, San Francisco Bay Area, 1993, California: Dept. of Health Services.